

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الرابعة - العدد الرابع عشر - صيف ١٣٩٣ش / حزيران ٢٠١٤م

صص ٣١ - ٩

صورة المدينة في رواية "أصابعنا التي تحترق" في ضوء نظرية

يوتوبيا لجورج ولز

حامد صدقي*

عبدالله حسيني**

انصار سليمي نژاد***

الملخص

إن دراسة المدينة كدراسة نقدية حظيت باهتمام كثير منذ نهاية القرن الثامن عشر، والمدينة باعتبارها إمّا واقعية وإمّا خيالية مثل المدينة الفاضلة أو أرض الأحلام تعدّ من أهمّ البنيات داخل التقنيات السردية في رواية القرن العشرين. أمّا في الفن الروائي، فعلاً المدينة تعدّ من أهمّ البنيات داخل التقنيات السردية الحديثة باعتبار أنّ وعى البطل يتشكل ويتطور داخلها متفاعلاً معها ومتأثراً بها وكاشفاً لها في كثير من الأحيان. وتهدف هذه المقالة إلى تقديم معايير نظرية جورج ولز الإنجليزي في اليوتوبيا وتطبيقها على رواية "أصابعنا التي تحترق". وقد توصلنا في هذا البحث أنّ سهيل إدريس سعى في "أصابعنا التي تحترق" أن يخلق صورة مدينة فاضلة وفق وجهة النظر الاشتراكية مثل المعايير الولزية لذلك يرى أنّ الحب، والأمن، والقانون، واستخدام المال في الطريق الصحيح، وتكريم المرأة يجب أن تسود البلاد العربية لكي تقترب من المدينة الفاضلة المنشودة.

الكلمات الدلالية: المدينة، أصابعنا التي تحترق، مدينه فاضلة، جورج ولز.

Sedghi@khu.ac.ir

Dr.abd.hoseini@gmail.com

Salimi.ansar@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٣٩٢/١٢/٨ش

*. أستاذ بجامعة خوارزمي، إيران.

** .أستاذ مساعد بجامعة خوارزمي، إيران.

***. طالب الماجستير بجامعة خوارزمي، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هومن ناظميان

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٦/١٤ش

المقدمة

أهمية البحث

إنّ المدينة قد حظيت بكثير من الدراسات، وعرف التاريخ أشكالاً من المدن، فهناك المدينة الخطيئة كسدوم، والمدينة الحراب كالعلياء والسند، والمدينة الغائبة كإرم، ومدينة التقاليد كلندن، والمدينة الثقافية كباريس. لا توجد في القرآن الكريم لغة المدينة الفاضلة ولكنّ أشار الله تعالى في بعض الآيات إلى مدينة أحلام لا تتحقق على أرض الواقع منها قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (سورة الهود: الآية ٨٥) وربما تكون المدينة الفاضلة التي توجد في عقول الفلاسفة، والأدباء، والمثقفين مختلفة عمّا جاء في القرآن.

كان «أفلاطون قد أرسى معالم هذه المدينة في جمهوريته.» (أبوغالي، ١٩٩٥م: ٢٦٣) ويقال سيّد اليونان عادةً مدينتهم الإلهية على غرار مدينتهم الإجتماعية الأرضية. فالمدينة الإلهية عندهم، سواء مدينة الأساطير الشعبية أو مدينة الفلاسفة؛ هي النسخة الراقية الكاملة "المثالية لمدينتهم" الفاضلة في الأرض. «أمّا الفارابي (محمد بن محمد ٨٧٤-٩٥٠م) فقد فعل العكس وشيد في كتابه المطبوع بعنوان "آراء أهل المدينة الفاضلة"، مدينته الفاضلة على غرار مدينته الإلهية أي مدينة الكون. بل إنّ المدينة الفاضلة عنده إنّما تكون فاضلة، فقط عندما تكون على مثال نظام الكون وترتيبه.» (الجابري، ٢٠٠١م: ٣٥٧)

أهداف البحث

تهدف هذه المقالة إلى تقديم معايير نظرية جورج ولز الإنجليزي في البيوتوبيا وتطبيقها على رواية "أصابعنا التي تحترق". فنحاول دراسة مفهوم البيوتوبيا المقصودة في رأى سهيل إدريس في روايته المذكورة التي تُعدّ إحدى من ثلاثيته ثمّ نطبق وتقرن ميزات البيوتوبيا الولزية عليها لكي نكشف مقاييسها في الفن الروائي اللبناني.

إشكالية البحث

يبدأ البحث بتعريف مفهوم البيوتوبيا أولاً، ثمّ دراسة ميزاتها في رواية سهيل إدريس

"أصابعنا التي تحترق أنموذجا"، ويرجع سبب اختيارنا لعنوان المدينة في هذه الدراسة إلى أنّ الأمكنة هي الأبطال الحقيقية في الروايات حيث المكان يشكلها، والمكان في الواقع يصنع أفكار مؤلف الرواية، وخواطره ويصنع ذوقه، وفي ظلّ مفهوم المدينة يصنع الأديب في أدبه صورة اليوتوبيا الفرضية والإنسانية التي يحلم أنّ تحقق وتشكل في مجتمعه. فأثارت هذه الظاهرة فينا سؤالين هاميين حاولنا الإجابة عليهما في دراستنا:

أ. ما هي نظرية جورج ولز في رسم معايير المدينة الفاضلة أو اليوتوبيا؟

ب. كيف تظهر ميزات المدينة الفاضلة اللوزية في رواية "أصابعنا التي تحترق"؟

منهجية البحث

وقد أعتدنا في هذا البحث على تحليل النص الإدريسي مستعيناً بمنهج هربرت جورج ولز. ربّما أنّ ميزات المدينة الفاضلة في رواية "أصابعنا التي تحترق" لسهيل إدريس تشبه ميزات منهج اليوتوبيا لإشتراكى الإنكليزي المعتدل لجورج ولز في التحليل الأدبي وغير الأدبي، فلذلك اخترنا هذه الرواية، وأجرينا أهمّ معايير نظرية اليوتوبيا اللوزية عليها وها هي:

١. الشمول العالمي ٢. الحب والتسامح ٣. الحرية ٤. العمل ٥. المال ٦. تكريم المرأة ٧. تحذير من الإسراف ٨. تخلص من الفاسدين والسكرارى والمجرمين. والمنهجية اللوزية تعتمد على دراسة النصوص الأدبية على أساس المعايير المذكورة بصفة أسس تمتاز بها المدينة الفاضلة فيها.

فرضية البحث

والفرضية التي ندعوها في هذا البحث هي أنّه يبدو أنّ سهيل إدريس يسعى في روايته الشهيرة "أصابعنا التي تحترق" أن يصور مدينته الفاضلة الإشتراكية ويقوم بتلقين وإلقاء فكرته الإصلاحية الاجتماعية إلى مجتمعه العربي. ونوع المدينة الفاضلة التي يصورها الأديب اللبناني ويستخدمه لتقد مجتمعه القائم هي المدينة المثالية التي صورها أفلاطون وسير توماس مور والإشتراكين اللذين هم الطوباويين من أمثال جورج ولز.

العينات

وقد آثرنا سهيل إدريس للدراسة لأسباب عدة منها: أنّه من أبرز الأعلام اللبنانيين في كتابة الرواية الحديثة ومن ثمّ كان تأثيره في مجال الفكر والثقافة من جهة، وفي رسم المدينة الفاضلة الراقية من جهة أخرى بارزاً جداً حيث يعدّ سهيل إدريس من الأدباء اللبنانيين الإشتراكيين الذين رسموا صورة مدينتهم الفاضلة في أعمالهم بصورة بارزة جداً. وإخترنا روايته الثالثة وهي "أصابعنا التي تحترق" بما أنّها تستكمل سيرة المثقف العربي الشاب في تحولاته الفكرية ومدينته الفاضلة السياسية والاجتماعية والثقافية وهو الشاب المتمرد الشديد الطموح للعب دور في بلاده، لبنان، في الاتجاه الذي يحقق لها حريتها وتقدمها ووحدتها القومية والوطنية.

خلفية البحث

وهنا يجدر أن نقول أنّنا لم نجد - في حدود ما قرأنا وبمبحثنا عنه - دراسة أخلصت نفسها لهذا الجانب المجهول من النقد في ضوء نظرية إشتراكية إلاّ تنفاً ماثوثة هنا وهناك، منها: يوسف الشاروني الذي يتناول في مقالة "يوتوبيا الخيال العلمي في الرواية العربية المعاصرة" تطور مفهوم اليوتوبيا في التاريخ وفي الرواية العربية المعاصرة، واهمّد عزيز الحسين الذي يتناول في كتابه "صورة المدينة وانعكاسها على بنية الشكل الروائي في الرواية العربية السورية (١٩٥٤م-١٩٧٤م) الجوانب الثقافية والسياسية، والاجتماعية في الرواية السورية وفي الفارسية" يتناول بعض الباحثين من أمثال جمال احمدي في مقالته "بررسی آرمان شهر در اشعار فریدون مشیری" صورة المدينة الفاضلة في أشعار فریدون مشیری ويتناول محمدرضا حاجباباي في مقالته "انديشه آرمان شهری در اشعار فریدون مشیری و آدونیس" مقارنة المدينة الفاضلة بين الشعارين الفارسي والعربي، مشیری و آدونیس وإلخ ولكنّ هذه الدراسات والمقالات ما درست صورة المدينة الفاضلة على ضوء نظرية علمية محددة مثل نظرية هربرت جورج ويلز.

حدود البحث

وستعالج المقالة المسائل التالية على الترتيب:

١. تحديد العينة التي أجرى عليها البحث.

٢. عرض الإطار لنظرية جورج ولز الاشتراكية.

٣. ملخص رواية أصابنا التي تحترق.

٤. تطبيق النظرية الولزية على الرواية.

٥. المدينة الفاضلة "اليوتوبيا".

إنّ المدينة باعتبارها إمّا واقعية وإمّا خيالية تعدّ من أهمّ البنيات داخل التقنيات السردية في روايات القرن العشرين. وهناك علاقة وثيقة ممتدة بين المدينة والرواية، والريف والرواية؛ بعبارة أخرى من الممكن أن نقول أننا لا نستطيع أن نكتب عن المدينة في الرواية ونقدها ولا نكتب عن الريف في الرواية، ويقول الروائي المصري الكبير بهاء طاهر والحائز على جائزة البوكر العربية للرواية في سنة (٢٠٠٨م) عن هذا الموضوع: «عندما أكتب، أكتب عن المدينة. أكتب عن القرية، علاقة المكان بالموضوع لا تتحدد إلا بعد الكتابة بالفعل. نحن لا نستطيع أن نكتب عن المدينة ولا القرية. لكنني فكرت في الموضوع فقلت رأيت شئ غريب جداً: أنّ معظم الكتاب كمحفوظ هم من أصول ريفية نزحوا إلى القاهرة وكتبوا عنها أدباء من أمثال طه حسين، محمد حسين هيكل في زينب، وعبدالرحمن الشرقاوي، كل هؤلاء من أصول ريفية، من خلفية ريفية، ثمّ نزحوا إلى المدينة ثمّ كتبوا عن القرية والمدينة معاً.» (القاهرة، ٢٠٠٨م: ٨١) ويبدو قضية المدينة عند كاتب كبير مثل نجيب محفوظ المصري حيث يجب جداً مدينته:

«إنّ الجانب الإيجابي هو جانب الحلم، أن يتمكن "أولاد حارتنا" أن يصلحوا الأمور أو أن يتمكن "الحرافيش" من أن يعيدوا ذلك العالم الطوباوي الذي يحلمون به، ولكنّ الصورة الروائية للمدينة صورة سلبية متقدمة وغير منطوية على ذلك الجانب الإيجابي الذي يراه فيها الكاتب من ذوى الأصول الريفية مثل الشرقاوي وطه حسين.» (القاهرة، ٢٠٠٨م: ٨٣) «كما يطلق عليها زكى نجيب محمود مصطلح "أرض الأحلام".» (نجيب محمود، ١٩٩٨م: ٢٦-٣١)

منى الإنسان النفس منذ القدم بمدينة فاضلة استقرت في فضائلها، تُنهي التاريخ وتتوّج نهايته بانتصار عادل. ومن حلم الإنسان بعالم عادل نهائى جاءت فكرة اليوتوبيا

القديمة - المتجددة التي تجعل من العالم المرغوب نقيضاً كلياً لعوالم الإنسان. أما ارتباط حلم أفلاطون في "الجمهورية" في القرن الرابع قبل الميلاد بمدينة مثالية يقودها الفلاسفة، وكتاب «توماس مور»^١ "أفضل الجمهوريات" عام (١٥١٦م) تسخر اليوتوبيا، وهي كلمة اخترعها توماس مور من ذاته، فهي تعني لغة "لامكان"، يشفع عليها مباشرة "لازمان" كى تظلّ معلقة في أثير الذاكرة، لا تنقشع ولا تمطر. «(دراج، ٢٠٠٤م: ٢٢-٢٣) فتخيل توماس مور في كتاباته أنّ الجزيرة اليوتوبية ليس لها وجود على أرض الواقع كما عنوانها زكى نجيب محمود "بأرض الأحلام" و«يتمثل فيها البشرية، حيث تتحقق السعادة وتمحى الشرور. وقام بتحليل نظامها السياسى، وانتقاد الأوضاع القائمة فى دولته عن طريق تخيله للأوضاع فى الجزيرة على نقيض ما هو موجود فى المجتمع.» (٤٧٠، Mojahed).

أما بالنسبة لصياغة كلمة اليوتوبيا ودلالاتها، كان توماس مور (١٤٧٨-١٥٣٥)، هو أوّل من صاغ كلمة "يوتوبيا" أو "أوتوبيا" فى نطقها اليونانى. وقد اشتقها من الكلمتين اليونانيتين "ou" بمعنى "لا" و "Topos" بمعنى "مكان"، وتعنى الكلمة فى مجموعها "ليس فى مكان"، ولكنه أسقط حرف "o" وكتب الكلمة باللاتينية لتصبح "utopia"، ووضعها عنواناً لكتاب له هو أشهر يوتوبيا فى العصر الحديث. «(برنيرى، ١٩٩٧م: ٧) أو تعنى هذه الكلمة بمعنى آخر هو «ذلك الشئ غير الموجود فى الواقع.» (وهبة، ١٩٩٨م: ٧٤٦) كما يذهب إليه الدكتور مراد وهبة.

واستخدام اللفظ منذ ذلك الحين فى كل اللغات الأوروبية، وفى ترجمته العربية أيضاً، ليعنى «نموذجاً لمجتمع خيالى مثالى يتحقق فيه الكمال أو يقترّب منه ويتحرّر من الشرور التى تعانى منها البشرية، ولا يوجد مجتمع كهذا فى بقعة محدّدة من بقاع الأرض، بل فى أماكن وجزر متخيلة، وفى ذهن الكاتب نفسه، وخياله كل شئ.»

١. ولد توماس مور فى لندن فى السابع من فبراير عام (١٤٧٨)، ودرس القانون، وعمل محامياً بعد تخرّجه ثم محاضراً فى القانون. كما انتخب عضواً فى البرلمان سنة (١٥٠٤). ثمّ عين عضواً فى مجلس البلاط عام (١٥١٨م)، ثمّ صار كبير أمناء ملك إنجلترا سنة (١٥٢٥م)، ويعتبر كتابه "اليوتوبيا" أشهر كتبه على الإطلاق.

(وهبة، ١٩٩٨م: ٧) وصارت للكلمة فيما بعد معانٍ مختلفة، فأصبحت بمعنى كل إصلاح اجتماعي أو سياسي أو تصورات مستقبلية خيالية، أو احتمالات علمية فنية. تدلّ عبارة الأوتوبيا في الوقت نفسه على «نوع أدبي وعلى نوع من السياسة الخيالية؛ وكذلك على تحقق شكل من التنظيم الاجتماعي غالباً ما يكون إكراهياً وأحياناً فظاً، يفترض أن يتجسّد فيه مثال يشتهر بأنه جيد بصورة عامّة.» (بوريكو، ١٩٨٦م: ٧٨) ويواجه الفكر الطوباوي بسلسلة من الاختيارات التي تكون على شكل بدائل إمّا تغير العالم، وإمّا تحقيق نظام اجتماعي مطابق للمثال الأخلاقي إمّا بواسطة الفعالية وإمّا بواسطة المثالية. وكل واحدة من هذه العبارات هي نفسها غامضة. ولكنّ يستخدم الأديب في أدبه الفكر الطوباوي لكي يتحقق النظام الاجتماعي مطابقاً لرؤيته السياسية، والأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية.

يرتبط تاريخ اليوتوبيات في القرن التاسع عشر بميلاد الحركة الاشتراكية، وفقدت الكلمة نفسها معناها الأصلي وأصبحت تعني التفكير المضاد للتفكير العلمي، وقد عرّف «فردريك إنجلز في كتابه "الاشتراكية اليوتوبية والعلمية" كلمة يوتوبيا، ولقى هذا التعريف قبولاً واسعاً.» (برنيري، ١٩٩٧م: ٢٥٩) إنّ الاشتراكية كما نعرفها اليوم، أقرب إلى تصورات الاشتراكيين اليوتوبيين منها إلى تصورات كارل ماركس مؤسس الاشتراكية العلمية. وهي «لم تعدّ تعترف بجمجمة الصراع الطبقي، وإمّا تهدف إلى تحقيق إصلاحات اجتماعية تدريجية يمكن أن تزيل الفروق الاقتصادية بين الرأسماليين والعمال.» (برنيري، ١٩٩٧م: ٢٦١)

أمّا فكرة العالم المثالي أو الفردوس الأرضي أو اليوتوبيا كما تسمى منذ صاغ توماس مور هذه الكلمة، ففكرة راودت خيال الإنسان منذ قديم الزمان، وتناولها الفلاسفة والمفكرون من أمثال أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، وأرسطو في كتابه "السياسة"، وفارابي في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، وكلّهم كانوا يحاكون مدينة فاضلة من جمهورية أفلاطون. أمّا «ما يميز يوتوبيا عن تلك الأعمال السابقة لها، فهو الشكل الروائي الذي قدم به توماس مور، عالمه المثالي من ناحية، وارتباطها بعالم الواقع ومشاكله ارتباطاً وثيقاً من ناحية أخرى.» (مور، ١٩٨٧م: ١٣)

ثم نرى أنه جاء في القرن التاسع عشر، هربرت جورج ولز وهو يدين بمذهب الاشتراكية وقد حدثنا عن مدينة فاضلة حديثة واختار معايير "هربرت جورج ولز" لأن المدينة الفاضلة في رواية "أصابنا التي تحترق" لسهيل إدريس تشبه صورة المدينة في رؤية يوتوبيا جورج ولز بما أن كلاهما من الاشتراكيين المعتدلين الإصلاحيين. أما جورج ولز فقد حدثنا عن ميزات وخصوصيات المدينة الفاضلة الحديثة كالنحو التالي:

١. شمول عالمي: لا يقتصر نطاقها الجغرافي على بقعة أو دولة بعينها فحسب، ولكنها تمتد لتشمل كوكب الأرض كله.

٢. الحب والتسامح: هي مدينة تتحدث لغة واحدة، ويسودها الحب والتسامح.

٣. الأمن والقانون في المدينة: وينتشر في ربوعها الأمن والقانون. في هذه المدينة يوائم بين رغبات الأشخاص، بينما جامعاتها مراكز نشيطة بالتجارب العلمية.

٤. المال: «هو صنو الحياة متى ما استخدم استخداماً صحيحاً في هذه المدينة.» (الأنصاري، ٢٠٠٨م: ٩٩)

٥. التخلص من الفاسدين، والسكراري، واللصوص، والمجرمين الظالمين، والمستعمرين: «إنّ على المجتمع الطوباوي أن يتخلص من البلهاء والمجانين، ومن الأشخاص الفاسدين، والعاجزين، والسكراري، ومدمني المخدرات، والمصابين بأمراض معدية، واللصوص، والمحتالين، والمجرمين والظالمين والمستعمرين.» (برنيري، ١٩٩٧م: ٣٦٦)

٦. الحرية: «هدف اليوتوبيا الحديثة هو أن تؤمن لكل مواطن الحرية التي تهبها له أملاكه المشروعة، أي جميع القيم التي كانت ثمرة كدحه أو براعته أو بعد نظره أو شجاعته.

٧. العمل: إنّ العمل ضرورة حتمية في اليوتوبيا الحديثة، ولكنّ فئة قليلة مميزة، كما في المجتمع الحاضر، هي التي يمكنها أن تعيش دون أن تضطر للعمل إذا أرادت ذلك. وفي المدينة المثالية ليس لأحد حق الحياة بلاعمل.

٨. تكريم المرأة: على الدولة القيام بتحمّل مسؤولية في تعليم الأطفال وتوفير أسباب

١. هربرت جورج ويلز، ولد في بردملي بمقاطعة كنت بإنجلترا عام (١٨٦٦)، من أسرة من طبقات المجتمع في الدرجة الدنيا من الطبقة الوسطى. يدين ويلز بمذهب الاشتراكية وقد كان عضواً في جمعية الاشتراكية المعتدلة، وحصل على درجة العلوم من جامعة لندن، ومن كتبه المشهورة: "الاشتراكية والزواج"، و"يوتوبيا حديثة". (<http://www.egs.edu/library/herbert-george-wells/biography>)

السعادة لهم، كما عليها أيضاً أن تكرم المرأة اجتماعياً، وأن تدفع لها أجراً على رسالتها كأم.

٩. التحذير من الإسراف: تحذر المدينة المثالية من الإسراف في كل ما هو ملبوس أو مأكول أو مشروب.» (برنيري، ١٩٩٧م: ٣٦٦)

ملخص "أصابنا التي تحترق"

تبدأ الرواية وسامى، بطل الرواية، جلس في مكتبه وهو أديب وصاحب مجلة أدبية تُدعى "الفكر الحر" وقف حياته على أدبه، وعلى مجلته. وسامى في هذه المرحلة يظهر «صورة للإنسان العربى الذى بلغ درجة من المعرفة جعلته ينظر إلى مجتمعه وإلى العالم كله بمنظارٍ واسعٍ شاملٍ وناقدٍ، إنه يلبس جبّة المثقف الملتزم الذى يريد أن يحافظ على كينونته داخل خضمّ من المشاكل والقضايا.» (الشملى، ١٩٩٨م: ٨٦)

حياة البطل في هذه الفترة تزخر بحضور المرأة، فقد كانت له صلات عديدة بنساء عديدات، خاض مع بعضهن تجارب مختلفة انتهت إحداها -وهى الصلة مع إلهام- بالزواج.

تبدأ الرواية ثم تنتهى بالثنائى سامى "مسؤول مجلة الفكر الحر" وإلهام راضى وهى الآنسة التى لا تزال شابة فى التاسعة عشرة وتريد الاشتراك فى المجلة: «عفواً... اسمى إلهام راضى. وكتب الاسم والعنوان على قسيمة الاشتراك ثم رأها تتناول نسخة من العدد الأخير من المجلة كانت على مكتبه، فتقلب صفحاته فى صمت، وما تلبث أن تنظر إليه: أننى أتابع المجلة منذ صدورها.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠) فاستقبلها رئيس التحرير سامى.

أما كان تجربة سامى طوال صفحات الرواية أول تجربته مع "رفيقة شاكر"، فناة سورية جميلة، تعمل مدرّسة فى مدرسة صغيرة فى شمال سوريا. إنّها من المعجبات بإنتاج سامى ومن المبهورات بروايته "على ضفاف السين". أمّا هى فترغب أن تعيش مع البطل تجربة على منوال تجاربه مع فتيات باريس من أمثال ليليان، ومارغريت، وسوزان فى رواية "الحى اللاتينى"، فعلاقته معها تنتهى بسرعة لأنّها تجربة الحبّ الفانية الباردة الضائعة. ثمّ

يجرّب سامى فى الرواية، تجربة حبّ كانت مع "سميحة صادق"، أديبة مصرية هى صديقتة وصديقة مجلة الفكر الحر عبر الرسائل: «ثلاثة رسائل من سميحة صادق ... فرأيت أن سميحة صادق هى خير من يتحدّث فى فن القصة. فكان لا بدّ من أن أشرف على إقامتها وتوفير أسباب الراحة لها كضييفة "فى لبنان"، وصديقه للفكر الحر.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٩٤) إنّها لم تفلح أيضاً فى امتلاك كيان البطل لأنّها مثقفة رومانسية، عاجزة عن مجابهة الواقع، وإلهام راضى هى المرأة الأخيرة التى تجمع بين محافظة الشرق "خجلها، وجمالها، وعائلتها المحافظة المقيدة بالتقاليد، وامتناعها عن العلاقة والاقتراب من البطل، وذوقها الأدبى وحضورها الفكرى مع البطل ومشاركتها البطل فى أعماله الأدبية داخل مكتبه". لذلك امتلكت كيان البطل واختارها سامى من بين نساء عديدات مثقفات: «إنّنى منذ زمن طويل أنتظرُك يا إلهام.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٤٦)

وبين البداية وخاتمة الرواية يخوض الزوجان معركة استمرار مجلة الفكر الحرّ، وسط عجز مالى تفرضه تناقضات محلية وعربية، فالعراق من أهمّ أسواق التوزيع، ولكنّ الحكومة الرجعية آنذاك، عام (١٩٥٣م)، كثيراً ما كانت تمنع إدخال المجلة إلى بغداد وأخواتها، فليجأ سامى مضطراً إلى تخصيص نسخ معينة للعراق تكون خالية من المواد التى تثير حفيظة الحكام هناك. «قال سمير "شريكه فى المجلة": يبدو أنّ هناك سياسة متعمّدة فى العراق لمنع أعداد مجلّتنا على التوالى: مرّة بسبب المقال الافتتاحى، ومرّة بسبب قصيدة ثورية، وتارة بسبب مقال عن المشكلات الاجتماعية... إنهم يريدوننا ألاّ ننشر أى مقال يثيرُ إحدى قضايانا الهامّة فى أىّ ميدان من الميادين...» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠٠) ثمّ يقترح سامى حلّاً لمشكله منع نشر المجلة فى العراق وإلهام تويده: «من أجلّ هذا ترانى أقرّ اقتراحك فى أن تزيد صفحات المجلة بضع صفحات إضافية تحشد فيها المادة المتفجّرة الثائرة، على أنّ توزّع فى سائر الأقطار، أمّا العراق، فلا تُثبت فى نسخة هذه الصفحات الإضافية، ريثما يقوم فى ذلك القطر حكم متحرر صالح.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٨٧)

وبما أنّ هذا لا يكفى لحلّ المعضلة المالية فسوف يعمل "سامى" فى التدريس الخاص، حيث يعطى دروساً فى اللغة العربية للفرنسيين المتدربين فى السلك الدبلوماسى، وهو

كمثقف حساس لا يمكن إلا أن يكون ملتزماً بالقضايا القومية، فيجره التعرف على شاب جزائري يُدعى "عبدالقادر رحمانى"، الذى هو عامل فى الجيش الفرنسى، إلى التعاون مع هذا الشاب الذى يبحث عن وسيلة ليلتحق بشعبه الجزائرى المقاوم بدلاً من الانخراط فى جيش محتلبه الفرنسيين. وتعاون سامى مع هذا الشاب يتضمّن مغامرة وتضحية بوظيفة. فاستقال "سامى" من معهد تعليم اللغة العربية للجنود الفرنسيين لأنهم يرتكبون جرائم ضد الشعب الجزائرى. «وسامى أذكرُ، وأنا أغادر المعهد، صديقنا عبدالقادر رحمانى، فأحسّ بعض العزاء، إذ أدرك أنّ بوسعى، أنا أيضاً، أن أكون جندياً صغيراً فى جيش التحرير العربى.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٦٥)

وأثناء انطلاقة مجلة الفكر الحرّ وانتشارها يفتح سامى أبوابه، ومعه إلهام راضى بطبيعة الحال، لمتقنين بارزين من مشارب مختلفة. تبدأ علاقته مع المثقفين من وحيد الملتزم بحزب الهلال واضعاً ثروته التى خبأها فى المهجر تحت تصرف حزبه حتى مات مفلساً، «فاستطرد يقول وحيد: وقد تُعجب يا سامى إذا أخبرتك أنّى أنفقتُ مالى من أجل الحزب.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢١٩) وكريم الذى كان فى حزب الأرجوانيين لكنّه ضاق ذرعاً بوفائهم المبالغ للاتحاد السوفيتى. «وبعد أن انفضّ الاجتماع، استبقى سامى صديقه كريم ليسأله سرّاً تطوّر موقفه من الأرجوانيين، وقال له: إنّنى قد أفهم اقتراحك فى الإشادة بموقف الإتحاد السوفياتى. أمّا هؤلاء "المرشحون دائماً للخيانة" على حدّ تعبيرك.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٧١) وهانى المهووس بلبنان حتى التفكير فى لبننة العالم؛ إلى عصام الحلوانى الشاعر المستغرق فى حب النساء وكتابة أجمل القصائد فى الحب والجمال.

وينشئ سامى علاقة عابرة مع الأدبية الشابة رفيقة شاعر التى سرعان ما تنتقل إلى ذراعى عصام، وتزوغ عينا عصام على إلهام التى ترتبك أمام وسامة الشاعر إلا أنّ حبها لزوجها "سامى" مدعومة بتقاليد المحافظة يعصمها من التماهى. ولكنّ هذا لا ينفى أن تتألم ممّا تعتبره ماضى زوجها سامى، «قالت فى نفسها إلهام: لا بدّ أنّك "سامى" كنت ترمى، إذ رويت لى علاقتك السابقة بمؤلفة رواية "المغامرة"، رفيقة شاعر، إلى أن تلحقها بذلك الماضى... أياكون لديك بعد ما تخفيه عنيّ يا سامى؟ إنّنى أقدر لك تلك

الأمانة وذلك الإخلاص. ولكنى أريدك أن تدفن حقاً هذا الماضي وتلك الذكريات.»
(إدريس، ١٩٩٨م: ٢١٥)

وقد سجّل جانباً من هذا الماضي فى روايته على ضفاف السين، إلا أن معاناتها الحقيقية كانت مع الكاتبة سميحة صادق التى تلاحقه بقصة حب وهمية طالبة منه أن ينفصل سامى عن إلهام ليكون معها. «أما أنا "سميحة صادق"، فلا أفهم معنى وجود إلهام معك مهما حاولت أن أفهم، وأنا بصراحة أرى هذا الزواج سخفاً لا معنى له، أشبهه برقعة على سطح حياتك، ينتظر أن تُنزع، ويرمى بها...» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٣٠)

وهو ما يرفضه سامى مجزم، نافياً أن يكون بينهما أكثر من صداقة أدبية أصبح فى غنى عنها، فيكتب: «حضرة الأنسة سميحة صادق، يؤسفنى أن أصارحك بأنك لم تستطعى أن تفهمى صداقتى الأدبية لك، ففسرتها على غير حقيقتها.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٣٢)

ولا تزال العلاقة بين إلهام وسامى هى الحب والقناعة بالحد الأدنى من شروط العيش الكريم مقابل استمرار مشاكل وديون مجلة الفكر الحر التى جاء نجاحها على حساب المشروع الروائى لسامى الذى لا يجد وقتاً لمواصلة إنتاجه المتميز. وهو ما يدعو إلهام إلى الصبر، على الرغم من إصابة سامى زوجها، بالسعال والمرض فى آخر الرواية، على نزواته، فيما تتأمل أصابعه التى تحترق بنار الإبداع والإخلاص لمشروع عمرهما المشترك: الفكر الحرّ.

«وسرتُ "إلهام" على رؤوس أصابعى ... وأطللتُ من فوق كنفه، كاتمةً أنفاسى. كان أمامه ورق كثير أبيض ... إنه يكتب. وقد خُيل إلى أن أصابعه التى تُمسك بالقلم، كانت تحترق إنه يكتب. وذكرت وعدى له. وعدى أن أساعده دائماً، ومهما كانت الظروف أن يكتب...» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٩٢-٢٩٣)

ومن الملاحظ أن نعترف بأن هناك الأشخاص الحقيقيين الذين يقفون وراء شخصيات هذه الرواية. «فلم يكن وحيداً، وحيداً، بل هو الكاتب اللبناني الكبير سعيد تقيلدين الذى قضى الأعوام الثمانية الأخيرة من عمره داعية متحمساً فى صفوف الحزب السورى القومى الاجتماعى، الذى أطلقت عليه الرواية اسم حزب الهلال، نسبة

إلى مشروع الهلال الخصب الذي كان يتبناه هذا الحزب. ولم يكن كريم هادي بعيداً في جوهره عن شخصية الأديب المفكر رثيف خورى الذي كان عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني - وقد أطلقت الرواية على الشيوعيين اسم الأرجوانيين كناية عن اللون الأحمر المرتبط بهم كعلامة وشعار - وقد ترك الشيوعيين ما حضا إياهم نقداً مرّاً لكنه التقى معهم في نصرة الجزائر. كذلك لا يصعب أن ندرك المقصود بشخصية هاني الغريب، فهو الشاعر سعيد عقل الذي يتباهى إلى حدّ الجنون بلبنان رافضاً أى ارتباط قومي له بالعرب. وتبقى شخصية عصام حلوانى الذى يكاد يصرخ على الورق بأنه الشاعر نزار قبّاني من قمة رأسه حتى أخص قدميه. وغنى عن القول بعد ذلك أن مجلة الفكر الحرّ هي مجلة الآداب التى أصدرها د. سهيل إدريس، وإنه هو سامى ميمون حسب اسمه فى الرواية، أمّا إلهام راضى فهى رفيقة عمره السيدة عايدة مطرجى إدريس.» (دحبور، ٢٠٠٨م: ٨٤)

صورة المدينة فى "رواية أصابعنا التى تحترق"

وبعد أن استعرضنا أهمّ محاور نظرية يوتوبيا لدى جورج ولز، وملخص رواية "أصابعنا التى تحترق" فتركز تطبيقنا على المعايير التى كانت موجودة فى الرواية على ضوء نظرية يوتوبيا لجورج ولز كما يلى شرحها ودراستها:

تمثّل رواية "أصابعنا التى تحترق" البنية الثالثة فى المشروع الروائى للكاتب الراحل سهيل إدريس ورواية أصابعنا التى تحترق هى حكاية سامى "سهيل إدريس" الذى عاد من سفر باريس بعد حصوله على درجة الدكتوراه فى الأدب العربى، وهنا فى بيروت يقصد أن يؤسس مجلة الفكر الحرّ "مجلة الآداب" باستعانة أصدقائه الأدباء، وبواجه صعوبات مالية، واقتصادية، وسياسية، وعدم انتشار مجلته فى سوق العراق وغيرها من المصائب الاجتماعية. وفى هذه الفترة نسعى أن نشرح بعض صفات اليوتوبيا المنشودة التى يريد سهيل إدريس تحقّقها فى أصابعنا التى تحترق.

١. المال

كما ذكرنا آنفاً يرى جورج ولز أنّ المال هو صنو الحياة متى استخدم صحيحاً

فى المدينة الفاضلة، ونحن نواجه فى أصابعنا التى تحترق شخصيتين متضادتين فى استخدامهما للمال فى طريقه الصحيحة وطريقه السيئة.

وهما: "وحيد حقى" و"إلهام راضى". أمّا وحيد فبعد أن اشترك فى الكتابة مع سامى فى مجلة الفكر الحرّ، انضمّ إلى حزب الهلال وأنفق كلّ ماله فى سبيل غير صحيح حتى أصبح فقيراً ليس له مال وأصبح مضطراً إلى طلب المعونة من الأصدقاء القدامى. وهو قد رجّح حزبه على صحته وسلامته: «فأجاب وحيد: ليس المهم أن أكون فى صحّة جيدة، أو فى حال طيبة، المهم أن يكون الحزب بخير وأردف وحيد قائلاً: والحزب الآن يعانى أزمة مالية لا بدّ من التغلّب عليها ... فاستطرد يقول: وقد تُعجب يا سامى إذا أخبرتك إننى أنفقت كلّ مالى من أجل الحزب. وتحرك الرجل فى مقعده وقال وهو يضحك: من أجل هذا أصبحت إلى طلب المعونة من الأصدقاء القدامى!». (إدريس، ١٩٩٨م: ٢١٩)

والحقيقة أنّ سامى يرى أنّ عمل وحيد ليس معقولاً وصحيحاً فى أن ينفق ماله كلّ من أجل الحزب والوصول إلى الرياسة ثمّ يستعطى، وفى الواقع يرى وحيد أنّ أدبه ذو قيمة إلاّ إذا كان فى خدمة حزبه. «فقال وحيد بلهجة هادئة رصينة: أصبحت الآن أعتقد يا عزيزى بأنّ أدبى لن يكون ذا قيمة إذا لم يكن فى خدمة حزبى. ثمّ نظر سامى إلى "إلهام" شارداً البصر، وقال: أهذا معقول؟ أن ينفق ماله كلّ من أجل الحزب ثمّ ... يستعطى؟». (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٢١)

ولم يكن وحيد، وحيداً بل هو «الكاتب اللبناني الكبير سعيد تقياالدين، الذى قضى الأعوام الثمانية الأخيرة من عمره داعيةً متحمساً فى صفوف الحزب السورى القومى الاجتماعى: الذى أطلقت عليه الرواية اسم "حزب الهلال"». (دحبور، ٢٠٠٨م: ٨٤)

٢. الحرية

وسامى الذى هو سهيل إدريس نفسه الذى استتر خلف قناع الشخصية، فى كلّ الرواية يرفض دعوة وحيد للانضمام إلى حزبه ويرى أنّ وحيد "سعيد تقى الدين" مع انضمامه إلى حزب الهلال وصرف أدبه فى خدمة حزبه، فقد حرّيته بصفته أديباً

مثقفاً حرّاً. وهذا ما نفهمه من الحوار الذي أجراه يسرى الأمير مع سهيل إدريس في هذا الموضوع، إذ يقول إدريس: «كنتُ وما أزال أعتقد أنّ انتساب المثقف الحرّ إلى حزبٍ ما يقيّد حريته في الاختيار، ويلزمه بسلوكٍ لا يتمتّع دائماً بالحرية التي هو المطلب الأول للمثقف. وفي تلك الفترة كان سعيد تقبالدين "وحيد في الرواية" من أعزّ أصدقائي؛ وكنت شديد الإعجاب بإبداعه الفني، ولكنّ نزعتي إلى التحزّب، وربّما طمعه في ترؤس الحزب السوري القومي الاجتماعي، وتبرّعه المستمرّ لهذا الحزب، كل ذلك قد باعد بيني وبينه، فقد سخرّ كل موهبته لخدمة حزبه، وحُرّم بالتالي من ذلك البعد الأساسى في حياة الأديب: بُعد الحرية.» (الأمير، ٢٠٠٠م: ٧) لذلك نفهم أنّ الحرية في المدينة الفاضلة الإدريسية هي المطلب الأول للمثقف الأديب وتجلياتها تظهر في رواية أصابنا التي تحترق لمموسة وبارزة. ومن سمات حرية سامى بطل الرواية أنّه يرفض الانحياز إلى اليمين، واليسار، والحزب الشيوعي، وحزب الهلال، لأنّه يرى أنّ «أى التزام حزبي مهّد لحرية، حرية فكره، وحرية أدبه وهو يصرّ على أن يحتفظ بحريته الكاملة.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٦٦) فهو «لا ينضمّ إلى أىّ حزب حتّى ولو كان يؤيده، وهذا الموقف شديد الشبه بالموقف الوجودى على نحو ما عبرت عنه "سيمون دى بوفوار" في روايتها "المثقفون".» (الشارونى، ١٩٦٤م: ٢٠١) وفي كل الرواية نرى أنّ سامى جعلها مجالاً للحديث عن شخصية البطل الثورى وطالب حرية الفكر، والتعبير، والكشف عن اتجاهاته الفكرية، وموقفه السياسى، وعواطفه واتجاهاته القومية.

لذلك يؤسس سامى مجلة الفكر الحرّ "وهى مجلة الآداب" وينفق ماله كله ويضحّى بحياته لها طالباً حرية مطلقة في طريق حياته التي كانت قبل سفره إلى باريس وطوال إقامته في باريس وبعدها في تحمّل كل المصاعب، والمضايقات للتحرّر من أىّ لون من ألوان العبودية، فيحدّث نفسه ويقول: «فقد كنتُ دائم الإيمان بأنّ أكبر نعمة مُنحها الإنسان هي نعمة الحرية، وأنّ كلّ نضال قام به الإنسان عبر القرون إنّما كان هدفه الأسمى الحرية، والتحرّر من لون ما من ألوان العبودية. من أجل هذا، فكرتُ وأنت بعد في باريس، بأنّ تنشئ "مجلة الفكر الحرّ" لتكون الرسالة تعبير عن إيمانك، ولتجعلها وسيلةً من وسائل تحرير الإنسان في هذه المنطقة من العالم...» (إدريس، ١٩٩٨م:

(١٠٣)

واعتماداً على أنّ سهيل إدريس يرى "حرية" مطلقة للأديب المثقف ويرى أنّ الأديب يجب أن يخرج من موقفه المتحفظ لذلك يقول إنّنا «من الذين يعتقدون أنّ الأديب مُعارضاً أديماً للسلطة، وينبغي أن يتحمّل هذه المسؤولية، ومن دونها لن يكون هناك تقدّم ولا تطوّر للمجتمع.» (زوكار، ٢٠٠٨م: ٩٦) ولهذا كانت مجلته الفكر الحر "وهي نفس مجلة الآداب" تمتع في السوق الرئيسية الأولى لرواجها، وهو العراق، لأنّ سامي ينشر فيها ضدّ حكامها مقالات ومنشورات تهدّد انتشار المجلة وتواجه الاحتجاب، لذلك يصرخ صراخ الحرية في روايته، و«يحسّ بأنّ حرّيته كلّها مهدّدة تهديداً مميتاً، حرّيته في أن يتنفّس، ويعيش، ويواصل بناء هذه المؤسسة التي بذل الكثير ليراهنا تبرزغ إلى النور. ويحقد حقداً أسود على أولئك الحكام الذين يمنعون الأقلام أن تعيش حرّيتها، حفاظاً منهما على كراسيهما مهدّدة بعبودية الخوف من الانهيار.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠٣)

٣. تكريم المرأة ومشاركتها في النشاطات الاجتماعية

أمّا الشخصية الثانية في الرواية فهي إلهام راضى زوجة سامي وهي «رفيقة عمر سهيل إدريس، السيدة عائدة مطرجى إدريس.» (دحبور، ٢٠٠٨م: ٨٥) وهي شخصية أدبية تفهم مشاكل سامي "سهيل إدريس" في بداية تأسيس مجلة الفكر الحر "مجلة الآداب" وبداية الزواج. وحاولت إلهام أن تقنع سامي على أنّها تتولّى التدريس في إحدى المدارس الابتدائية وتحصل على بعض المال لتصرفها في طريقه الصحيح كما يذهب إليه جورج ولز فهي تقول: «لم أحاول أن أقنع سامي بأن يوافق على أن أتولّى التدريس نهائياً في إحدى المدارس الابتدائية، فأحصل على بعض المال الذي يساعدنا على تحقيق أمنيّتنا على أن أتابع دراستي مساءً في الأكاديمية؟ أمّا كان ذلك بدافع من الشعور بواجب المشاركة وتخفيف بعض العبء عن كاهله؟» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٥٣) هذه العبارات تدلّ على موقف المرأة في مشاركتها لبناء مستقبل زوجها، لذلك تريد أنّ تشترك في الحصول على المال مع زوجها ومساعدتها له لتأسيس بيت صغير تدريجياً

وشراء حصتي شريكيهما "سمير وضياء" في المجلة وصرف المال في طريقة العلم. لذلك تحاول إلهام أن تطرد عن زوجها اليأس والتردد. فتقول: «وحين أبلغتني، بعد يومين واليأس في صوتك ونظراتك أنّ شريكك يطلبان ثمناً باهظاً لحصتيهما في المجلة، ثمناً يعادل أربعة أضعاف ما شاركنا به من رأس المال... ألم أخبرك يومذاك إنني أقنعت أهلي بأن يقدموا لنا نقداً ثمن غرفة الاستقبال التي كانوا ينوون شراءها لنا؟» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٨٤)

أمّا بالنسبة لتكريم المرأة في اليوتوبيا الإدريسية المتجلية في رواية "أصابعنا التي تحترق" نرى أنه يحترم النساء من أمثال إلهام راضى، ورفيقة شاكر، وسميحة صادق، فسامى يكرّم إلهام راضى ويحترمها قبل زواجه منها في دعوتها إلى قراءة روايات من الفرنسية للترجمة وصرف وقت لها، ومنذ بداية الرواية كان سامى يشاركها في البحث الأدبي ونقد ترجماته ويسمع ويصدر رأيه في مجلته الفكر الحرّ.

وعندما «أراد المؤلف في "أصابعنا التي تحترق" أن يصوّر "إلهام راضى" زوجة البطل، حاول أن يرسم لها نموذجاً مثالياً لزوجته تجمع بين تفتح المرأة، وتمسكها بالأخلاق الشرقية.» (السعافين، ١٩٨٧م: ٤٦٥) فسامى يعطيها قصة جميلة ويريد منها ترجمتها ليدرس معها الرواية وعناصرها: «قال سامى وهو يدفع لها مجلة فرنسية شهرية: إنّ فيها قصة جميلة حاولى أن تترجمى منها بضع صفحات تدارسها معاً فى لقائنا القادم ... وحدثته "إلهام" عن رأيها فى الرواية التى سبق أن أهدى إليها نسخة منها. وقالت إنّ سلوك البطل لا أخلاقى حاولت الرواية أن تبرّره وتعطف عليه القارئ ...» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠٧)

فسامى بعد زواجه منها، يعطيها سكرتيرية التحرير لمجلة الفكر الحر: «ثمّ اقترح على سامى أن أساعده فى الفكر الحرّ بتولى سكرتيرية التحرير، تمهيداً للاستقلال بالمجلة بعد فترة من الزمن. ولقد أثلج اقتراحه صدرى وملأنى اعتزازاً بأن أحسنى مشاركة لرفيق حياتى المقبل فى العمل الرئيسى الذى يقوم به.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٥٣-١٥٤) "سهيل إدريس" فى كل الرواية يحاول أن يحترم المرأة ويسعى لتعليم المرأة وتشجيعها للحصول على شهادة الليسانس والدكتوراه:

«واتقنا على أن أوصل "إلهام" دراستي بعد الزواج حتى أحصل على الليسانس. وقال لي سامي إنه يشجعني على إعداد رسالة للدكتوراه بعد ذلك...». (إدريس، ١٩٩٨م: ١٧٥) أما بالنسبة للعمل نرى أن سهيل إدريس يرسم لنا بطل الرواية في هذه الرواية كنموذج مثالي يعمل عملاً كادحاً للوصول إلى أغراضه وغاياته في الحياة. فهو حينما يواجه العجز المالي في نشر مجلته يزيد في جهده ويسعى في الكتابة أكثر من ماضيه ويقلل ساعات قيلوته وراحته طالباً حلّ مشكله:

«قال سامي "بعدهما أصيب بعجز مالي في مجلته بسبب منعها من سوق العراق" في لهجة قوية: نزيد الجهد لزيادة الإعلان في المجلة. إنه حتى الآن مورد ضعيف جداً، أليس كذلك يا سمير ... وقال سامي: وأنا بدوري سأضحى... إنني سأمتنع عن أخذ أي مبلغ شهري لنصيبي ... وحين بلغ سامي منزله، فتناول طعاماً سريعاً، وهو يحسّ ذلك الغليان النفسى الذى افتقده طويلاً فى الفترة الأخيرة، ذلك الاحتشاد العاطفى والذهنى الذى يدعوه إلى الكتابة ويلجّ عليه فى اعتصار الفكر والروح والقلب على شبا قلمه الراعش. ولم يجد حاجةً إلى القيلولة، بل جلس وهو يحسّ بأن تلك الأقصوصة التى كان قد بدأها منذ أيام تكتمل خطوطاً ... تلك كانت أروع لحظات الحياة عنده: أن يشعر بأصابعه تحترق.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠٤)

٤. التحذير من الإسراف

وفى مكان آخر نرى أن إلهام تنفق مبلغاً صغيراً من المال الذى كانت تحتفظ به لشراء ثوب صيفى لأنّ سامي لم يكن له مال ليساعد صديقه القديم "وحيد حقى" فحين رأت إلهام، عجز زوجها عن تقديم مبلغ لصديقه وحيد حاولت أن تجنب عن الإسراف فى ملبوسها وأنفقت ماها لمساعدة شريكها الزوجى: «انسحبت "إلهام راضى" مسرعة من المكتب، ثمّ أوّمت إلى سامي من خلف الباب بحيث لا يراى صديقه، وأعلمته أنّي سأتيه بمبلغ صغير من المال كنت محتفظة به لشراء ثوب صيفى. فلم يقل سامي شيئاً، وحين جئته بالمبلغ نظر إلى نظرة عرفان وعاد إلى المكتب...». (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٢٠) وهكذا نرى فى رؤيتها إلى الحياة الزوجية، كانت تتجنب عن الإسراف فى ملبوساتها،

وهي في الواقع تخالف تقاليد شرقية خاطئة في إنفاق الأموال الكثيرة، وإسرافها في بداية الزواج لشؤون غير صحيحة عوض أن ينفق الزوجان أموالهما في بداية الحياة الزوجية لبناء مستقبلهما لا للوقوع في ورطة التجمّلات. وهذه الرؤية تطابق رؤية ولز الإشتراكية في بناء المدينة الفاضلة «يجب أن تحذر المدينة الفاضلة المثالية من الإسراف في كل ما هو ملبوس أو مأكول أو مشروب.» (برنيري، ١٩٩٧م: ٣٦٦) فتجيب إلهام طلب سامي لتقديم الخاتم لها قائلة:

«ولكن هل طلبت منك خاتماً يا سامي؟ هل حدثت يوماً بهذا؟ قال سامي بصوت منتعش بالأمل: أنت إذن لاتطلبين مني خاتماً؟ أمن الممكن أن يحدث هذا في بلدنا؟ فقلت "إلهام": أنا لستُ عبيدة تقاليد يا سامي. ماذا يفيدني الخاتم؟ أي نفع أجنبي من وضع خاتم في إصبعي يبلغ ثمنه ألوف الليرات؟ أليس الأفضل أن نستعين بهذا الثمن، حين يتوفّر لك، لتحقيق بعض مشاريعك؟» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٧٥)

٥. التخلص من الفاسدين والظالمين والمستعمرين

يعمل سامي في التدريس الخاص، حيث يعطى دروساً في اللغة العربية للفرنسيين المتدربين في السلك الدبلوماسي، وهو كمتقّف حساس لا يمكن إلا أن يكون ملتزماً بالقضايا القومية، فيجره التعرف على شاب جزائري تُدعى عبدالقادر رحمانى، الذى هو عامل في الجيش الفرنسى، إلى التعاون مع هذا الشاب الذى يبحث عن وسيلة ليلتحق بشعبه الجزائرى المقاوم بدلاً من الانخراط في جيش محتليه الفرنسيين. وتعاون سامي مع هذا الشاب يتضمّن مغامرة وتضحية بوظيفة. فاستقال سامي من معهد تعليم اللغة العربية للجنود الفرنسيين لأنهم يرتكبون جرائم ضد الشعب الجزائرى. «سامي أذكر، وأنا أغانر المعهد، صديقنا عبدالقادر رحمانى، فأحسّ بعض الغراء، إذ أدرك أن بوسعى، أنا أيضاً، أن أكون جندياً صغيراً في جيش التحرير العربى.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٦٥) هذه القضية ربّما تدلّ على أنّه يعدّ سهيل إدريس من الأدباء الطوبواويين اللذين يرون أنّ المجتمع الطوباوى يجب أن يتخلّص من المحتالين، والمجرمين والظالمين والمستعمرين مثل الفرنسيين وقواتهم الإحتلالية في لبنان.

شمول عالمي

من ميزات المدينة الفاضلة الإدريسية التي تشبه اليوتوبيا الولزية ويرى سهيل إدريس أنه يجب أن تصبح منتشرة وشاملة في عالم الوجود وماورائه هي المسؤولية برزت كعامل بناء في أكثر أعمال سهيل إدريس. وهناك شخصيات في ثلاثية الروائية سعت بلا مسؤولية، أمثال "عصام الحلواني" و"سميحة صادق" و"رفيقة شاكر" و"عبلة سلطان" في "أصابعنا التي تحترق"؛ و"صبحى وعدنان" و"ناهدة" في "الحى اللاتيني"؛ و"فوزى" و"سميا" في "الخندق العميق".

وإن هذه المسؤولية التي شعر بها البطل الإدريسي برزت في أكثر من مستوى. المستوى الفردى والمستوى القومى والمستوى الشمولى أو الإنسانى. أمّا على المستوى الفردى، فعلى كل فرد أن يتخذ قراره بنفسه، وعليه أن يأخذ على عاتقه مسؤولية اتخاذ القرار. فسامى في "أصابعنا التي تحترق" لم ينبع قراره إلا من داخله، و«بمقتضى قناعته الذاتية، قدم استقالته من المعهد الفردنسى بكفيا، رغم الضائفة الاقتصادية التي كان يعاني منها». (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٦٨) ولم تغب المسؤولية عن المرأة. صحيح أن إدريس قدم لنا نساء عاجزات، أو فتيات سيطرت السلبية على فترة طويلة من حياتهم. غير أنه كان يدرك أن المرأة كإنسان حر، تقف على قدم المساواة مع الرجل في صنع الحياة. إذن لا فرق بين الجنس الذكر والأنثى في الالتزام بالقضايا الأخلاقية التي تطور المجتمع الإنسانى.

النتيجة

دار موضوع هذا البحث حول صورة المدينة في رواية "أصابعنا التي تحترق" لسهيل إدريس في ضوء نظرية جورج ولز الإشتراكية، وبما أن ميزات المدينة الفاضلة في أعمال سهيل إدريس كانت تشبه اليوتوبيا التي يرسمها الرجل الإشتراكي الإنجليزى، جورج ولز، لذا حاولنا تطبيقها على الرواية الإدريسية وقد خرجنا منها بهذه النتائج:

١. لقد وقف سهيل إدريس وراء شخصية بطل الرواية أى سامى ورفض فساد المجتمع، وعدم مسؤولية الشخص فيه وبمحت عن المجتمع الطوباوى والمثالى اللبنانى

الذى يتخلص من الفاسدين، والسكارى، والمسرفين في كل ما هو ملبوس أو مأكول أو مشروب، ولقد أشارت صورة المدينة الفاضلة في روايته "أصابعنا التي تحترق" ضجيجاً لصراحة تعبيرها عن المجتمع الجديد المتنامى الطوباوى في ذهن الأديب والآخرين وما فيها من إدانة لمصادر الإحباط والفساد في المجتمع والريف.

٢. وسعى سهيل إدريس في "أصابعنا التي تحترق" أن يخلق مدينة فاضلة وفق وجهة نظره الاشتراكية والبورجوازية. إذ يرى أن الحب، والتسامح، والأمن، والقانون، واستخدام المال في الطريقة الصحيحة، وتكريم المرأة، والتحذير من الإسراف في كل الشؤون. يجب أن تود البلاد العربية أولاً أن يختلف المجتمع في داخله ولاسيما أعضاء الأسرة التقليدية الدينية اللبنانية على الرغم من صراع الأجيال فيها ويجب أن تتسامح الأجيال المختلفة في هذه الأسرة الشرقية لكي تقترب من المدينة الطوباوية المنشودة.

٣. وتمثل رواية "أصابعنا التي تحترق" البنية الثالثة في المشروع الروائي الإدريسي التي تجسد لنا بعض صفات اليوتوبيا المنشودة، فنستنتج من الرواية أن الشخصية التي تستخدم المال في طريقه الصحيح، مثل إلهام راضى، زوجة سامى التي حاولت أن تقنع زوجها على أنها تتولّى التدريس في إحدى المدارس الابتدائية للحصول على بعض المال وتصرفه في طريقه الصحيح لبناء شخصية موفقة ومفيدة للمجتمع المثالى. ولكن الشخصية التي تستخدم المال في طريق غير صحيح، مثل وحيد، وينفق كل ماله في سبيل حربه حتى يعانى في النهاية من أزمة مالية، شخصية غير موفقة، وخاسرة ويجب عليه أن يعدل في حياته ويصحح سلوك فيها.

٤. أمّا تكريم النساء فمن ميزات المدينة الفاضلة الإدريسية التي يبرزها في ضوء نظرية يوتوبيا لجورج ولز الاشتراكية في رواية "أصابعنا التي تحترق" ومن خلال قراءة الرواية وتصرف البطل الإدريسي مع النساء، نفهم أنه يحترم النساء من أمثال إلهام راضى، ورفيقة شاكر، وسميحة صادق، ويعتبر إحترام النساء ومشاركتهن في الحياة الإجتماعية وسيلة للوصول إلى اليوتوبيا المنشودة. لذلك نرى أن سامى يكرم إلهام راضى قبل زواجه منها ويعطيها قبل زواجه روايات للترجمة ومنذ البداية يشاركها في المناقشات الأدبية ونقد ترجماته.

٥. وبما أنّ المال هو صنو الحياة متى ما استخدم صحيحاً في المدينة الفاضلة، ونحن نواجه في هذه الرواية أنّ الأديب اللبناني يطرح مشكلة العجز المالي في المجتمع الشرقي للأدباء والمثقفين ويحاول أن يشرح طريقة صحيحة لإستخدام المال في حياته الزوجية، وأيضاً في حياة الأدباء. وهو يشير إلى قصة صديقه، وحيد، وقصده الخطأ في إنفاق كل ماله في سبيل حزبه "حزب الهلال"، حتى أصبح مضطراً، وسائلاً يطلب المال من سامي بطل الرواية. وفي هذه الرواية نرى بيان ميزة أخرى لليوتوبيا الإدرسية وهي العمل. وهو يرسم لنا الإديب الذي هو صاحب مجلة الفكر الحر، كنموذج مثالي يعمل عملاً كادحاً للوصول إلى أغراضه، وأهدافه في حياته الأدبية وإن أصيب بعجز مالي واضطرّ إلى أن يعمل في معهد تعليم اللغة العربية للفرنسيين المستعمرين.

٦. إنّ ميزات نظرية اليوتوبيا الولزية، كثيراً ما تنطبق على رؤية سهيل إدريس الإشتراكية وهذه تدل على أنّ الرجلين ينتميان إلى طبقة إجتماعية وسياسية مشتركة لذلك تعكس أعمال سهيل إدريس الأدبية بوصفها بنية إبداعية، رؤية مشتركة مع جورج ولز ناتجة عن أفكارهما المتشابهة ويتبلور هذا التوازن والإشتراك عن طريق القياس وتطبيق نظرية ولز على الأثر الأدبي حتى يستطيع المتلقى الوصول إلى رؤية الأديب اللبناني بصورة بارزة في أعماله مع تطبيق نظرية اليوتوبيا الولزية على روايته "أصابعنا التي تحترق" وفي النهاية تبدو ميزات المدينة والدولة المنشودة له.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
أبوغالى، مختار. (١٩٩٥م). المدينة فى الشعر العربى المعاصر. ط١. الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب.
- إدريس، سهيل. (١٩٩٨م). أصابعنا التى تحترق. ط٨. بيروت: دار الآداب.
- الأمير، يسرى. (٢٠٠٠م). «تجديد الرسالة والأحلام». مجلة الآداب. العدد ٩. صص ١٣-٧.
- برنيرى، ماريا لوزيا. (١٩٩٧م). المدينة الفاضلة عبر التاريخ. ترجمة عطيات أبو السعود. ط٢. الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب.
- بوردون، ر؛ وبوريكو، ف. (١٩٨٦م). المعجم النقدى لعلم الاجتماع. ترجمة سليم حداد. ط١. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

صورة المدينة في رواية "أصابعنا التي تحترق" في ضوء نظرية يوتوبيا لجورج ولز / ٣١

- الجبّار، محمدعابد. (٢٠٠١م). العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية. ط ١. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- دحبور، أحمد. (٢٠٠٨م). «دعمة الثلاثاء: أصابعنا التي تحترق في وداع المعلم اللبناني د.سهيل إدريس». مجلة الآداب. العدد ٤. صص ٨٩-٨٣.
- درّاج، فيصل. (٢٠٠٤م). الرواية وتأويل التاريخ نظرية الرواية والرواية العربية. ط ١. المغرب: الدار البيضاء.
- زوكار، الشاذلي. (٢٠٠٨م). «عن الشعر، والكتاب، والحب، وشراء الأقلام حوار لم ينشر مع د.سهيل إدريس». مجلة الآداب. العدد ٧. صص ٩٩-٩٦.
- السعافين، إبراهيم. (١٩٨٧م). «تطوّر الرواية العربية الحديثة في بلاد شام». ط ٢. بيروت: دار المناهل.
- الشاروني، يوسف. (١٩٦٤م). «دراسات في الأدب العربي المعاصر». ط ١. القاهرة: المؤسسة المصرية.
- الشملي، سهيل. (١٩٩٨م). البطل في ثلاثية سهيل إدريس. ط ١. بيروت: دار الآداب.
- الانصاري، عبدالله عبدالوهاب محمد. (٢٠٠٨م). الإيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة دراسة بين كارل مانهايم وتوماس مور. د. ط. القاهرة: جامعة الإسكندرية.
- محمود، زكي نجيب. (١٩٩٨م). أرض الأحلام. ط ١. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.
- مور، توماس. (١٩٨٧م). يوتوبيا. ترجمة وتقديم نجيل بطرس سمعان. ط ٢. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.
- نخبة القاهرة. (٢٠٠٣م). الرواية والمدينة. ملتقى القاهرة الثاني للإبداع الروائي العربي. ط ١. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- وهبة، مراد. (١٩٩٨م). المعجم الفلسفي. ط ٢. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- Horey, Mojahed, The proletarian Revaluation between might and right, Bulletin of the Faculty of Law, Alex University, VI, p470
- المواقع الإلكترونية
- <http://www.egs.edu/library/herbert-george-wells/biography>